جمال الكلمة العربية في النظام الصوتي العربي
المعرَّبات القرآنية نموذجًا

أ. د. ممدوح محمد خسارة (*)

١- جمال الكلمة العربية:

الجمال هو الحُسن، وهو من مدركات حاسة البصر أصلاً، ولكن دلالة هذه الكلمة تطورت كنظيراتها من مدركات الحواس الأُخَر، فكما أن الحلاوة والملاحة هي أصلاً من مدركات إحساس الذوق، وتطورت إلى مدركات البصر، كذلك تطورت دلالة الجمال من مدرك البصر في قولنا (منظر جميل وامرأة جميلة)، إلى مدرك إحساس السمع في قولنا (لحن جميل)، وتجاوزت إدراك الحواس إلى إدراك العقل في قولنا (صبْر جميل، وعرفان الجميل)، وعلى هذا فقد صار الجمال جمالات.

وبالنظر لتوسُّع دلالة كلمة (الجمال) وتمدُّدِها، بعد أن صارت من أكثر الكلمات المعاصرة تداولاً وشيوعاً، فقد صار أنسب ما تعرَّف به هو أنَّه (كلُّ مُبْهِجٍ ومرغوب فيه)[1].

فلا غرابة – والحال هذه – أن يقال جمال اللغة، الذي ينشعب الحديث فيه

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) ابن منظور – لسان العرب: جمل، والمعجم الوسيط: حسن.

إلى جمال التركيب والنظم، وجمالِ الكلمة المفردة موضوع بحثنا. وإذا كان الذين يتحدثون عن جمالِ التركيب يعتمدون على حُسْن النظم والأساليب، فإننا عندما نتحدث عن جمال الكلمة نعتمد على جمال نظامنا الصوتي العربي، لأن الكلمة هي وحدة هذا النظام، «فهي مجموعة من الوحدات الصوتية المؤلَّفة بطريقة معينة لكي ترمز إلى الأشياء الحسيَّة أو الأفكار المجردة»[٢].

قد يُعترض علينا بأن الكلمة المفردة لا يمكن الحكم عليها بالجمال، لأنها متأثرةٌ سلباً وإيجاباً بنسق التركيب الذي هي جزء منه. بل أنكر بعض العلماء القدماء وعلى رأسهم الجرجاني (٤٧١هـ) أن يكون للكلمة المفردة جمالٌ إلا في سياق النظم، فالكلمة المفردة عنده من حيث هي لفظةٌ لا وزن لها ولا قيمة في فصاحة أو بيان[٣]، وتابعه على ذلك بعض المحدثين[٤] الذي ينقل عبارة ابن منظور في اللسان بأن الكلمة الواحدة لا تُشجي ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع....

أما ما نذهب إليه فهو أن الكلمة المفردة تستمد حُسْنها من ذاتها المفردة أولاً، ثم يأتي التركيب، أو النظم الذي قد يزيد جمالها أو يُنقصه، فثمة جمال للكلمة المفردة أو اللفظة حتى ولو لم تدخل التركيب. ورائدنا في هذه المقولة ابنُ سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) صاحب كتاب (سر الفصاحة) الذي يؤكّد أن للكلمة المفردة جمالاً ينبع من مجموعة شروط يحددها بدقة[٥]. وتابعه على ذلك باحثون معاصرون أفاضل منهم د. منير سلطان الذي يتبنَّى آراء الخفاجي ويدافع عنها. ولعل هذا ما كان يرمي إليه ميخائيل نعيمة في قوله: «إن لمفردات

(٢) د. منير سلطان – بلاغة الكلمة والجملة والجمل: ١٥.

(٣) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز: ٤٢ – ٢٣٢.

(٤) د. علي نجيب إبراهيم – جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم: ٥١.

(٥) ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة: ٥٤ وما بعدها.

اللغة التي نصوغ منها منثوراتنا ومنظوماتنا صفات عجيبةً وميزاتٍ غريبةً، فلكل كلمة معنى أو روح، ولكل كلمة رنَّةٌ، ولكل كلمةٍ صبغةٌ أو لونٌ»(٦).

إننا نرى أن للكلمة المفردة جمالاً بذاتها ولا حاجة للانتظار حتى نحكم على حُسْنها. ولنأخذ أمثلة من أزواج من الكلمات المتحدة المعنى المختلفة الأصوات:

أيهما أجمل: منبسط أم مُسْحَنْطر

حَسْناء أم مَرَوْدَكة

ناعمة أم بَخَنْداة

سَرابٌ أم خيتعُور

رهام أم شَجْذة

وأَبْعَد من ذلك، فثمة مفردات قاسية الدلالة، ولكنها من أشيع المفردات في شعرٍ ونثر، لا لشيءٍ إلا لجمالها الصوتي أو جرسها الموسيقي على حدِّ عبارة البلاغيِّين والنُّقاد، مثال ذلك كلمة (الصّبا) أي الريح الشرقية، وهي ريح باردة جدًّا شتاءً وحارَّة جدًّا صيفاً، وليس من الواقعية وحسن الدلالة في شَيْءٍ أن يقال: (سلامٌ أرقُّ من الصَّبا)، فالصَّبا ليست رقيقة، بل هي أقسى ما يكون من الريح على الإنسان، ومع ذلك فما أكثر تواردها في نظمٍ ونثر!! ومن بين أسماء مئات النجوم في العربية لم يَشِعْ إلا نحو ثلاثة أسماء هي السُّهى وسُهيل والثريَّا، في حين لم يَسْتعمل واحد منهم (الشَّجَج) وهو اسم لنجم عندهم. ولا يغيب جمال الصوت عن أذن سامع العربية في (سُهَيْل والسُّهى) وفي هذين الحرفين المهموسين، في حين لا يغيب الثِّقل والعسر في تتابع الحرفين الشَّجْريَّين المتقاربي المخرج في (الشَّجج).

(٦) ميخائيل نعيمة – الغربال: ٧١ (طبعة دار صادر).

٣- جمال الكلمة وفصاحتها:

لا بد من الإشارة إلى العلاقة بين فصاحة الكلمة وجمالها، ذلك أن بعضهم يقرن الجمال بالفصاحة، وهي علاقة قائمة ولكنها ليست مطلقة، ذلك أن بين الجمال والفصاحة عموماً وخصوصاً كما يقول المناطقة، فالجمال أعمُّ من الفصاحة، والأخيرة متضمّنةٌ فيه، يجمع بينهما (الحُسن في اللفظ أو الصوت)، ويفرّق بينهما أن فصاحة الكلمة مرتبطة بعصر الاحتجاج وبالسلامة اللغوية، في حين أن جمال الكلمة لا يتأثر بعصر دون عصر، ولا يكتفي بالسلامة اللغوية التي هي شرط لازم ولكنه غير كافٍ. الفصاحة ذات صلة بالجمال حتماً إذ يحدُّها البلاغيون بأنها «خلوُّ الكلمة من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس»[٧]، وعدم التنافر يعني الانسجام والتناسق، وهو يلتقي بهذا مع الجمال الذي من أظهر معانيه تناسق التكوين، ولكن الجمال لا يلتقي مع الفصاحة في اشتراط عدم الغرابة أي عدم الإبهام في المعنى، فقد تكون الكلمة غريبة مبهمة الدلالة ولكنها جميلة، هل هناك كلمة أكثر إبهاماً من كلمة (مَعْن) التي نسمِّي بها ونستجملها؟ مع أنها من أكثر الكلمات إبهاماً من حيث الدلالة فهي تعني: الطويل والقصير والقليل والكثير والهيِّن واليسير والإقرار بالذُّل، والجحود والكُفْر للنعم، والماءَ الظاهر[٨]. ومثلها كلمة (ميَّة) التي تعني (القِرْدَة)[٩]، ومع ذلك فما أكثر نساء العرب وحسناواتهن اللاتي يُسَمَّين بهذا الاسم، لأن جرسه اللفظي جميل على السَّمَع.

(٧) القزويني – التلخيص في علوم البلاغة: ١٤ (طبعة ١٩٣٢).

(٨) الفيروز آبادي – القاموس المحيط: معن.

(٩) لسان العرب: ميا.

٣- الجمال في النظام الصوتي العربي وأسسه:

إننا نرى أن مردّ الجمال في كل ما هو جميلٌ من المفردات العربية هو انسجامها مع ما نسمّيه بالنظام الصوتي العربي. فالكلمة تستمد جمالها من عناصر ذلك النظام القائم على مجموعة من الأسس، مدارها على السهولة في النطق والخفة على السمع، وأهمها:

أ- عدد أحرف الكلمة العربية:

من أبرز عناصر النظام الصوتي في الكلمة العربية قلة عدد أحرفها، لأنها أَسْهَل في النطق وأخفُّ على السمع. فالكلمة العربية على ثلاثة أحرف أصلية أو أربعة أو خمسة، وتبلغ بالزيادة سبعة أحرف ما عدا ملحقاتها من أل التعريف أو أحرف النسبة أو التأنيث. وقلة عدد الأحرف في الكلمة مَجْلَبة للخفة والسهولة في النطق، أو ما يُسمَّى بالاقتصاد اللغوي، بخلاف كثرة الأحرف التي هي مدعاة للثقل والصعوبة، إنْ في النطق أو في السمع.

وبسببٍ من هذا كانت الجذور الثلاثية في العربية نحو أربعة أضعاف الجذور الرباعية والخماسية، ففي العربية (٥٠٣٥) جذراً ثلاثيّاً في مقابل (١٣٦٨) جذراً رباعيًّا[١٠].

ويعلل ابن جني هذه الظاهرة بقوله: «وعُلِم أيضاً أن ما طال وأقلَّ بكثرة حروفه لا يمكن فيه التصرّف ما أمكن في أَعْدل الأصوات وأخفها وهو الثلاثي»[١١] وأشار ابن جني في مَوْضِع آخر إلى استكراه العرب «ذوات الخمسة لإفراط طولها، فأوجبت الحال الإقلال منها وقَبْض اللسان بها إلا فيما ندر»[١٢].

---

(١٠) ندوة تونس المعجمية – المعجم العربي المختص: ١٩٢ - ٢٠٥.

(١١) ابن جني – الخصائص ١/ ٦٩.

(١٢) المصدر السابق ١/ ٦١-٦٢.

لقد أظهر كلام ابن جني العلاقة بين عدد حروف الكلمة وخفتها وقابليتها للتصريف، وهي علاقة تناسب عكسي لذا، فكلما قلَّت حروف الكلمة خَفَّت على النطق وزادت تصريفاتها.

ب- خلُو الكلمة من الأحرف أو الأصوات غير العربية:

ولهذا فقد كان العرب في مزاولة التعريب حريصين كل الحرص على الأبجدية العربية، ولذلك «جعلوا إبدال الحروف غير العربية لازماً. يصدرون في هذا الحكم عن بُعْد نَظَرٍ وتَفطُّنٍ، وحرصٍ على عدم إفساد اللغة وأساسها بحروف أعجمية»(١٣).

وكان اللغويون القدماء قد أشاروا إلى أن العرب يبدلون بالأحرف الأعجمية أقرب الأحرف العربية إليها. «فالبَدَل عندهم مطرد في كل حَرْف ليس من حروفهم، يبدلون منه ما قَرُبَ منه من حروف العربية»، على حدِّ تعبير سيبويه(١٤).

إن مسألة إدخال أحرف أجنبية إلى لغتنا خلقَ إشكالية حقيقية،فانقسم اللغويون والمعرِّبون ما بين متساهل يهوِّن من أثر إدخال هذه الأصوات إلى الأبجدية العربية، وبين حازم متبصّر بعواقب الأمور - والباحث منهم - يرى أن أهم خصائص أي لغة هي أصواتها وحروفها، وأنها إذا فقدت هذه الخاصِّية فسوف يؤثر ذلك على طبيعة اللغة وأحكامها الصرفية وقواعدها المعجمية، وأنه يحمل مخاطر قاتلة على العربية(١٥).

ومع أن بعض المجامع اللغوية قد أَقَرَّت إدخال هذه الأحرف، إلَّا أنَّ بعضها الآخر عارضها بشدَّة كما تراجع عنها أكثرية اللغويين.

---

(١٣) د. مسعود بوبو – أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج: ٨١، ١٤٦.

(١٤) سيبويه – الكتاب ٤: ٣٠٥ - ٣٠٦.

(١٥) لمزيد من التفصيل ينظر د. ممدوح خسارة – منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث: ٩٤.

ج- ائتلاف أحرف الكلمة العربية:

وهو أهم خصائص بِنْيتها الصوتية وأسرار جمالها، وقد كان البحث في ائتلاف الحروف وتنافرها موضع ودراسات للقدماء والمحدثين، بل قلما خلا منه كتاب لغوي(١٦)، ذلك أن «من خصائص اللسان العربي - على حدِّ عبارة الفارابي في ديوان الأدب - أنه لم يلاق بين حرفين لا يأتلفان ولا يعذبُ النطق بهما، أو يشنع ذلك منهما في جَرْس النغمة وحُسن السَّمع كالغين مع الخاء، والقاف مع الكاف، والحرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الافتعال مع الصاد والضاد في أخوات لها»(١٧). وتلحظ عبارة (لا يعذب النطق بهما... أو يَشْنع ذلك منهما في جرس النغمة وحسن السَّمع).

ولعل من أهم أسباب ائتلاف الحروف في الكلمة العربية تباعدَ مخارجها، فذلك أسهل للنطق وأيسر، وتصبُّ هذه الخاصيّة أيضاً في قانون الاقتصاد اللغوي، لأن «توفير الجهد اللغوي لا يعني قلَّة أحرف الكلمة، بل يعني قبل ذلك خلوَّها من التنافر»(١٨) الذي من أهم أسبابه تقاربُ مخارج الأحرف في جهاز النطق، كالهاء والعين الحلقيَّتين.

ومما يلحق بالتنافر الثِّقَلُ، ولو كان خفيفاً، فقد قال العرب (صبْية)(١٩) وكان قياسها (صِبْوَة)، وما ذلك إلا لتنافر بين الباء والواو، لكنَّهم أَحسُّوا ثقلاً فاستحسنوا الهرب إلى الياء تخفيفاً. ومن الثقل التضعيفُ، ولهذا أبدلوا أحد حرفي المضعَّف ياءً في قولهم (تَظَنَّيْتُ) وأصلها (تَظَنَّنْتُ). و(أَمْلَيْتُ) وأصلها (أَمْلَلْتُ)(٢٠).

---

(١٦) ينظر مثلاً الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين ١: ٥٧ وعبدالله أمين - الاشتقاق: ٤٣١.

(١٧) الفارابي - ديوان الأدب ١: ٧٢.

(١٨) د. مسعود بوبو - أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج: ١٣٠.

(١٩) ابن جني - الخصائص ١: ١٩٧.

(٢٠) المصدر السابق: ٢- ٢٣١.

وأهم دراسة حول تنافر الحروف وائتلافها دراسة للعالم اللغوي (إبراهيم ابن محمد بن دُنَيْنير -٦٣٥هـ)، الذي وضع جدولاً تفصيليّاً يغني عمَّا سواه[٢١] فمثلاً لا تأتلف الثاء مع الذال والزاي والصاد والضاد والظاء والسين لا بتقديم ولا تأخير. ولا تأتلف الغين مع الجيم والحاء والخاء والعين بتقديم ولا تأخير. ولا تأتلف الجيم مع القاف والكاف والظاء والغين بتقديم ولا تأخير. ولا تأتلف الجيم مع القاف والكاف والظاء والغين بتقديم ولا تأخير....إلخ.

ولكن يجب التنبُّه إلى أن الأحكام اللغوية ليست مطلقة تماماً فقد ورد في اللغة مثلاً (الجَقَّة) وهي الناقة الهرمة، فتتابعت الجيم والقاف في هذه الحالة[٢٢]. ومن دلائل السهولة والخفة في الحرف كثرة دورانه في النصوص العربية والكلام العربي.

د- ائتلاف الحركات في الكلمة العربية:

الحركة جزء من بِنْية الكلمة العربية، وهي ذات قيمتَيْن: تعبيرية وصوتية. فالقيمة التعبيرية التفريق بين المعاني في نحو (عَبَد وعُبِدَ)، والقيمة الصوتية تسهيلُ النطق بالأحرف الساكنة، إذ يتعذّر نطقُ حرفين ساكنين متصلين. إلا أن هذه الحركات التي وُجِدت لتسهيل النطق وخفَّته قد تغدو مدعاة ثِقَلٍ إذا تنافرت. وحالات التنافر بينها هي:

- الضمة قبل الواو في الاسم: فليس في العربية اسم آخره واوٌ قبلها ضمةٌ، فما ورد منها في كلام العرب دخيل، نحو (ملكو – مندو...).
- الحركتان المتضادتان، ونعني بهما الكسرة والضمَّة، إذ لم يرد الانتقال من الكسر إلى الضم في العربية لثقله، لذا انعدم بناء (فِعُل) في الثلاثي.

(٢١) د. حسان الطيان – تنافر الحروف ودورانها في نسج الكلمة العربية: ١٠٢.

(٢٢) لسان العرب: جقق.

• الواو الساكنة المكسور ما قبلها، والياء الساكنة المضموم ما قبلها[٢٣].

وقريب من هذا الثقل تحريك الواو والياء وقبلها الفتحة، إذ هو مكروه إلا عند الضرورة، لذا جمعوا (سَرِيّ) على أَسْرِياء و(غَنِيّ) على أغنياء وكان القياس (سُرَواء وغُنَياءَ)، لأنهم يكرهون تحريك الياء والواو وقبلها الفتحة، إلا أن يخافوا التباساً كما في الأفعال نحو (رمَيَا وغَزَوا...)، فيبقونها.

هـ- عدم اجتماع أربعة متحركات:

لأنَّ في ذلك استثقالاً على اللسان والنطق. قال سيبويه: «ألا ترى أنَّه ليس في كلامهم اسم على أربعة أحرف متحرّكٌ كلُّه»[٢٤]. فإذا وجد ذلك فهو ثقيلٌ مستكره نحو (عُلَبِط) للقطيع، و(عَرَتَنَّ) لنبات. وحول هذا يقول ابن خالويه «لا يُجْمع أربع متحركات في اسم واحد استثقالاً حتى يُحْجَز بين المتحركات بالسّكون»[٢٥].

و- منع التقاء الساكنين في الكلمة:

إلا أن يكون الساكن أول حَرفَيْ تضعيف وقبلهما حرف مدٍّ، نحو (شابَّة ودويبَّة)، لأن حرف المدّ شبيه بالحركة.

ز- عدم البدء بحرف ساكن في الكلمة: فليس في العربية كلمة مبدوءةٌ به.

ح- إنهاء الكلمة المعرَّبة بحرف صامت قابل لتحمّل الحركة الإعرابية:

لأن الإعراب من أبرز خصائص العربية[٢٦].

والواقع أن معظم هذه القواعد هي مما أشار إليه ابن سنان الخفاجي ومتابعوه من المحدَثين، وإن كنا لا نوافقهم على الشروط الثمانية كلها التي

---

(٢٣) الفارابي – ديوان الأدب: ٧٢ (ولم يمثل لهما).

(٢٤) سيبويه – الكتاب ٤: ١٩٢.

(٢٥) ابن خالويه – ليس في كلام العرب: ٢٨.

(٢٦) لمزيد من التفصيل ينظر د. ممدوح خسارة – منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث.

اشترطوها لجمال الكلمة العربية، كأن تكون الكلمة مصغّرة في بعض المواقع، وألا تكون وحشيَّة غريبة، وألا تكون قد عُبّر بها عن أمرٍ يُكرَه(٢٧). كما أثبت هذه القواعد الصوتيّة دارسو البيان القرآني، الذين أكدوا أنَّ الأسلوب القرآني قد «تجنَّب الأصوات المتماثلة أو المتقاربة، وتكرار حروف الحلق، والحركات الثقيلة»(٢٨).

٤- التعريب وجمال الكلمة العربية:

قد يقال: ما الفائدة من ذكر أسس وشروط هي من صميم قواعد الصرف العربي والبلاغة العربية، فمعظم الكلم العربي تُراعى فيه - طبعاً وسليقةً - هذه الأسس، فالعربية لم تجمع بين حروف متنافرة في كلامها، ولا بين حركات متنافرة لتلك الحروف، ولم تبدأ بساكن ولم تجمع بين ساكنين. فما كلامك إلا تحصيل حاصل.

أقول: إن الذي يسوّغ هذا البحثَ وأمثاله أن ظاهرة التعريب اللفظي أو الصوتي من اللغات الأجنبية تفشو فُشُوّاً سريعاً ومقلقاً، فبدلاً من أن يولِّد العرب كلمات عربية جديدة لما يستجدُّ من المفاهيم والأدوات والآلات، سواء أكانت من ألفاظ الحضارة أم المصطلحات العلمية، نجدهم يلجؤون إلى التعريب اللفظي لتلك المُسَمّيات، أي نقل الكلمة الأجنبية إلى العربية نقلاً صوتيًّا، وذلك استسهالاً لوضع المسمَّيات وهروباً من توليد أسماء لها من صميم لغتنا، فدخلت لغتَنا كلمات لا تتفق مع رَوْنَق الكلمة العربية من مثل / موبايل – ستالايت- سْلايد – فاكس.../ .

(٢٧) ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة: ٥٤ وما بعدها.

(٢٨) د. أحمد أبو زيد – التناسب البياني في القرآن: ٣٠١ - ٣٠٤.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أن التعريب اللفظي أو الصوتي أصل لغوي، وكان دائماً وسيلة من وسائل التنمية اللغوية وزيادة الثروة اللفظية في كل اللغات، ومنها لغتنا العربية فليس من لغة تستغني عن غيرها تماماً، فاللغات تتفاعل فيما بينها أخذاً وعطاءً. وهذه الظاهرة من مستلزمات الاحتكاك الحضاري ونتائجه، فمفردات العربية مبثوثة في العديد من لغات العالم كالفارسية، والتركية والإنكليزية والفرنسية والإسبانية، كما أن لغتنا العربية فيها الكثير من المفردات الأجنبية أصلاً والتي دخلت العربية وخضعت لقوانينها الصوتية، فعُرِّبت وصارت جزءاً لا يتجزأ منها، ودخلت شعرها ونثرها ومعجماتها، والأهم من ذلك أنها وردت في أعظم نصٍّ عقائدي لغوي أدبي وهو القرآن الكريم. وورودها فيه لم يمنع أبداً من أن يوصف بأنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وأن الله أنزله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وهذا دليل على أن اللسان العربي لا يعني الكلمات العربية الأَصلية ذات الجذور العربية فحسب، بل يعني أيضاً ما دخل هذه العربية من الكلمات المعرّبة، التي هي أعجمية الماضي عربية الحاضر، فاللسان العربي يضم العربيَّ والمعرَّب من الكَلِم.

إنَّ وجود المُعرَّبات في القرآن الكريم أعطانا درساً لغويّاً مهمّاً مفاده أن الاقتراض اللغوي والتعريب اللفظي لا يضير اللسان العربي حتماً، بل هو عَوْنٌ لهذا اللسان على أداء وظيفته التعبيرية والتواصلية، ولكن بشرط التزام المنهج الصحيح في تعريب المفردات الأجنبية. وما هذا المنهج الصحيح إلا منهج القرآن الكريم في التعريب، وما منهج القرآن الكريم في التعريب إلا التزام أُسس النظام الصوتي العربي الذي هو مزيج متجانس من أركان الفصاحة العربية وقواعد الصرف العربي كما قَدَّمنا.

إن جمال الكلمة العربية ينبع من فصاحتها المستمدة من مفاهيم البلاغة العربية، ومن خفتها وسهولة نطقها وعُذوبة سمعها المستمدة من قواعد الصرف العربي وعلم الأصوات.

٥- المعربات القرآنية نموذجاً:

«المعرَّب هو كل كلمة دخلت اللغة العربية قديماً أو حديثاً على أن تكون خاضعة لمقاييس العربية وأبنيتها وحروفها»[٢٩] «وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوّه به العرب على منهاجها»[٣٠].

أثار وجود بعض الكلمات المعربة في القرآن الكريم جدلاً كبيراً بين الفقهاء القائلين بوجود المعرَّب في القرآن الكريم، وبين اللغويين المنكرين لوجود المعرَّب فيه. ويُنسب إلى أبي منصور الجواليقي (٥٦١هـ) صاحب كتاب (المعرَّب على حروف المعجم)، مذهب توفيقي يقول فيه: «والصواب عندي مذهبٌ فيه تصديق القولين جميعاً، ذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، إلا أنها سقطت إلى العرب فأَعربَتْها بألسنتها وحوَّلتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن الكريم وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجميّة، فهو صادق»[٣١].

ومن المعربات التي وردت في القرآن: (درهم، دينار، فردوس، كافور، سِجِّيل، سِفْر، حواريّ، استبرق، صراط، مشكاة، محراب، قنطار، سندس...). وقد اختلف العلماء القدامى في تأصيل هذه الكلمات وردِّها

(٢٩) د. أحمد مطلوب – حركة التعريب في العراق: ٢٦.

(٣٠) الجوهري – الصحاح: عَرَب.

(٣١) الشهاب الخفاجي – شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل: ٢٤ وينظر السيوطي – المزهر ١: ٢٦٩.

إلى لغاتها الأصلية، فما نسبه بعضهم إلى الروميَّة نسبه آخر إلى الفارسية، وما نَسَبه بعضهم إلى السريانية نسبه آخر إلى الحبشية... وهكذا(٣٢).

لا أهمية في بحثنا لمعرفة أصل الكلمة المعرَّبة من أي لغة هي، بقدر ما يهمنا معرفة التغييرات التي طرأت على لفظها وأصواتها لمعرفة المنهج القرآني في تعريب الكلمات الأعجمية. فَلْنأخذْ نماذجَ من هذه المعربات ونَرْصُدِ التغييرات التي أدخلت عليها لإخضاعها لما سَمَّيْناه النظام الصوتي العربي.

• **دِرْهم**: أصلها في اليونانية - كما يذهب بعضهم - (دراخما). وعربت إلى دِرْهِم ودِرهَم. فماذا أُدخل عليها من تغيير؟

١- تَجنُّب التقاء الساكنين في حرفي الألف والخاء.

٢- حذف بعض الأحرف لتصبح الكلمة رباعية بدلاً من سداسية.

٣- إبدال الخاء هاءً.

٤- صوغها على إيقاع عربي هو (فِعْلَل) نحو هِجْرَع وهو الطويل، أو (فِعْلِل) نحو (حِفرَد) وهو نبات.

٥- حذف الألف من آخر الكلمة ليصبح الحرف الأخير صامتاً يقبل الحركة الإعرابية التي هي من خصائص العربية.

أمَّا لماذا أبدلوا الخاء هاءً، مع أن الخاء حرف عربي، وكان من الممكن إبقاؤه، فلأن الهاء أيسر على النّطق، إذ نسبة دورانها في الكلام العربي هو (٥٨ , ٧٪) في حين نسبة دوران الخاء هي (٣٧ , ٠)(٣٣).

وكثرة دوران الحرف في الكلام دليل خفَّته على اللسان والخفة من أركان الجمال اللغوي.

---

(٣٢) السيوطي – المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب: ١٢٠.

(٣٣) د. محمد مراياتي ود. حسان الطيان ود. يحيى مير علم – علم التَّعمية واستخراج المُعَمَّى ٢: ١٤٣.

• **كلمة (فِرْدَوْس)**: اختلف في أصلها بين فارسية ورومية ونبطية وعبرية وسريانية، وقال (الكرملي) هي من الإغريقية، وإنَّ أصلها (بارادايس) بالباء المهموسة، عُرِّبت إلى الجمع ثم أفردت إلى فِرْدَوْس[٣٤]. فماذا أجري عليها من تعديل؟

١- إبدال الفاء العربية بالباء الفارسية المهموسة. لأن الفاء أقرب الأحرف العربية إلى ذلك الحرف الذي ليس من لغة العرب.

٢- حذف بعض حروفها حتى غدت كلمة خماسية الأحرف بدل الثمانية، فحذفت الألفات الثلاثة.

٣- إبدال الواو بالياء طلباً للخفة، لأن الواو أكثر دوراناً في نسج الكلام العربي من الياء، بدليل أن الجذر (دَيَسَ) الذي تُعاقب فيه السينُ الياء ليس من الجذور العربية، في حين أن الجذر (دوس) الذي تَعاقب فيه السين والواو موجود، ويحوي بضع عَشْرة **كلمة**[٣٥].

• **كلمة (سِفْر)**[٣٦]: بمعنى كتاب، رُجِّح تعريبها من الآرامية، كما رُجِّح أن لفظها في الأصل (سِفْرو). فماذا أجري عليها من تعديل؟

١- حَذْف الواو من آخر الكلمة، لأنه ليس في العربية اسمٌ منتهٍ بواو قبلها ضمة. ولأنَّ حرف الراء الذي وقفت عليه الكلمة هو من الحروف الصامتة التي تتحمّل الحركة الإعرابية.

٢- صوغ الكلمة على إيقاع عربي هو (فِعْل)، ونظائره في العربية كثيرة نحو: (عِلْم وحلْم).

---

(٣٤) السيوطي – المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب: ١٢٠ (حاشية المحقق د. التهامي الهاشمي).

(٣٥) ابن منظور – لسان العرب: دوس.

(٣٦) ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة: ٥٤ وما بعدها.

• **كلمة (سِجِّيل)**: وأصلها في الفارسية (سَنَك وكُل)[٣٧]. بالكاف الفارسية المجهورة كالجيم القاهرية. ومعناها (حجرٌ وطين).

فكيف أخضعت للنظام الصوتي العربي؟

١- أُدمجت الكلمتان في كلمة واحدة، واختصر حرفٌ من أحرفها.

٢- أبدل بالحرف الأعجمي وهو (الكاف) الفارسية المجهورة أقرب الأحرف العربية إليها هو (الجيم).

٣- صيغت الكلمة على إيقاع صوتي عربي هو (فِعِّيل)، ونظائره في العربية كثيرة من نحو: صِدِّيق وزِمِّيت.

• **كلمة (مشكاة)**: وهي كلمة حبشية الأصل، ولفظها في لغتها (MASCOT) ومعناها الكُوَّة. ويلحظ كيف أبدل بالسين شيناً وبالواو المفخمة ألفاً، فجاءت الكلمة على إيقاع اسم الآلة في العربية مثل (مِرآة ومِبراة).

وما دخول هذه الكلمات المعرَّبة وأمثالها من نحو (محراب، كافور، استبرق، وسرادق، صراط، زخرفة) في اللغة العربية وتماهيها في نسيج الكلمة العربية، حتى لَيخال كثيرٌ من دارسي العربية أن هذه الكلمات عربية الأصل والجذور وليست بمعرَّبة، إلا لخضوعها للنظام الصوتي العربي الذي لم يُدخلها في إطار العربية فحسب، بل في إطار ما هو جميلٌ من كَلِمها الخالد.

وبعد: فإن هذه التغييرات التي أدخلها العرب والقرآن الكريم على الكلمات الأعجمية عند تعريبها، إنما جاءت تجسيداً إبداعيّاً لمنهج لغوي صرفيّ جماليّ هو ما أسميناه (بالنظام الصوتي العربي) الذي يُقعّد للصحة اللغوية وللجمال اللغوي في وقت واحد. وتتفاضل الكلمات العربية في

(٣٧) المصدر السابق: ٩٦.

جمالها بمقدار تحقق عناصر ذلك النظام في بُنْيتها. وهذا ما علينا أن نعمل على هَديه عند تعريب الألفاظ المعاصرة ونقلها إلى لغتنا.

خلاصة البحث:

١- للكلمة العربية المفردة جمالٌ لغوي مستقل عن النظم الذي قد يزيد من ذلك الجمال أو يُنْقِصُه، ولكن غيابه لا يفقدها ذلك الحُسْن والجمال.

٢- من أهم معايير جمال الكلمة العربية خضوعها للنظام الصوتي العربي الذي استُنبِطت أحكامه من كلام العرب، ومن قواعد الصرف العربي، ومن المعرَّبات القرآنية، ومعرَّبات عصر الفصاحة والاحتجاج، وهو جمال صوتيّ مَدارُه على الخفَّة على السمع وسهولة النطق.

٣- قدَّمت المعربات القرآنية منهجاً واضحاً لتعريب الكلمات الأعجمية ودمجها في العربية، وعلينا التهدِّي به عند تعريب الكلمات الأجنبية المعاصرة.

٤- علينا تطوير مباحث مقررات البلاغة وطرق تَدْريسها بما يتلاءم وحاجاتُنا اللغوية المعاصرة ومن أهمها التعريب اللفظي، الذي يحمل مخاطر حقيقية على العربية إن لم نُنَهِّجْه بما يتفق وقواعدُ السلامة اللغوية وأسس الجمال اللغوي.■

* * *

المصادر والمراجع

- أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج – د. مسعود بوبو – نشر وزارة الثقافة – دمشق ١٩٨٢.

- بلاغة الكلمة والجملة والجمل – د. منير سلطان – منشأة المعارف ط١ – مصر ١٩٩١.
- التلخيص في علوم البلاغة – القزويني – ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي – المكتبة التجارية الكبرى بمصر ط١ – ١٩٣٢.
- التناسب البياني في القرآن – د. أحمد أبو زيد – مطبعة النجاح – الدار البيضاء ١٩٩٢.
- تنافر الحروف ودورانها في نسج الكلمة العربية – د. حسان الطيان – دمشق ١٩٨٣.
- جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم – د. علي نجيب إبراهيم – دار كنعان ٢٠٠٢.
- حركة التعريب في العراق – د. أحمد مطلوب – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – بغداد ١٩٨٣.
- الخصائص – ابن جني – تح محمد علي النجَّار – دار الكتاب العربي – بيروت (د.ت).
- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – تعليق محمود محمد شاكر – مكتبة الخانجي – القاهرة ١٩٨٤.
- ديوان الأدب – الفارابي – تح د. أحمد مختار عمر – منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٤.
- سر الفصاحة – ابن سنان الخفاجي – تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعيدي – مكتبة علي صبيح – مصر ١٩٥٢.
- شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل – الشهاب الخفاجي – تح د. عبد المنعم الخفاجي – القاهرة (د.ت).

- الصحاح – الجوهري.
- علم التَّعمية واستخراج المُعَمَّى – د. محمد مراياتي ود. حسان الطيان ود. يحيى مير علم – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٧.
- الغربال – ميخائيل نعيمة – دار صادر ودار بيروت – بيروت ١٩٦٠.
- في جمالية الكلمة – د. حسين جمعة – نشر اتحاد الكتاب العرب بدمشق ٢٠٠٢.
- القاموس المحيط – الفيروز آبادي.
- الكتاب – سيبويه – تح عبد السلام هارون – عالم الكتب – بيروت (د.ت).
- كتاب العين – الخليل بن أحمد الفراهيدي – تح مهدي مخزومي- دار الهجرة – إيران ١٤٠٥هـ.
- لسان العرب – ابن منظور.
- ليس في كلام العرب – ابن خالويه – تصحيح وضبط أحمد أمين الشنقيطي – المكتبة المحمودية التجارية – مصر (د.ت).
- المعجم العربي المختص – ندوة تونس المعجمية – دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٩٦.
- منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث – د. ممدوح خسارة – مؤسسة الرسالة والدار المتحدة – بيروت ١٩٩٩.
- المهذَّب فيما وقع في القرآن من المعرّب – السيوطي – تح د. التهامي الراجي الرّباط.

* * *